(١٠٨) سورة الكوثر مكية
وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف : (إحداها) أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن فى السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة : (أولها) البخل وهو المراد من قوله (يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين) (الثانى) ترك الصلاة وهو المراد من قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) (والثالث) المراءاة فى الصلاة هو المراد من قوله (الذين هم يراءون) (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله (ويمنعون الماعون) فذكر فى هذه السورة فى مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر فى مقابلة البخل قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر فى مقابلة (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قوله (فصل) أى دم على الصلاة ، وذكر فى مقابلة (الذين هم يراءون) قوله (لربك) أى ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس ، وذكر فى مقابلة (ويمنعون الماعون) قوله (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحى ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله (إن شانئك هو الأبتر) أى المنافق الذى يأتى بتلك الأفعال القبيحة المذكورة فى تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر ، وأما أنت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل ، وفى الآخرة الثواب الجزيل .

﴿ والوجه الثانى ﴾ فى لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات : (أعلاها) أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم فى نور جلال الله (وثانيها) أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية (وثالثها) أن يكونوا فى مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) إشارة إلى المقام الأول

وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف . أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالا من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله (فصل لربك) فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله (وانحر) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال (إن شانئك هو الأبتر) ومعناه أن النفس التى تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهى السعادات الروحانية والمعارف الربانية التى هى باقية أبدية . ولنشرع الآن فى التفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) اعلم أن فيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) فى مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر فى أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته (أولها) قوله (ماودعك ربك وماقلى) ، (وثانيها) قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) (وثالثها) (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهى قوله (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)

ثم ذكر فى سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء (أولها) (ألم نشرح لك صدرك) (وثانيها) (ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض ظهرك) ، (وثالثها) (ورفعنا لك ذكرك) ،

ثم إنه تعالى شرفه فى سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف (أولها) أنه أقسم ببلده وهو قوله (وهذا البلد الأمين) ، (وثانيها) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله (إلا الذين آمنوا) ، (وثالثها) وصولهم إلى الثواب وهو قوله (فلهم أجر غير ممنون)

ثم شرفه فى سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات (أولها) (اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك (وثانيها) أنه قهر خصمه بقوله (فليدع ناديه سندع الزبانية) ، (وثالثها) أنه خصه بالقربة التامة وهو (واسجد واقترب) .

وشرفه فى سورة القدر بليلة القدر التى لها ثلاثة أنواع من الفضيلة (أولها) كونها (خيراً من ألف شهر) ، (وثانيها) نزول (الملائكة والروح فيها) (وثالثها) كونها (سلاماً حتى مطلع الفجر)

وشرفه فى سورة (لم يكن) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات (أولها) أنهم (خير البرية) (وثانيها) أن (جزاؤهم عند ربهم جنات) ، (وثالثها) رضا الله عنهم ،

وشرفه فى سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : (أولها) قوله (يومئذ تحدث أخبارها) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية (والثانى) قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، (ثالثها) قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومعرفة الله لاشك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها ثم شرفه فى سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف

تلك الخيل بصفات ثلاث (والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا .

ثم شرف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة (أولها) فمن ثقلت موازينه (وثانيها) أنهم فى عيشة راضية (وثالثها) أنهم يرون أعداءهم فى نار حامية .

ثم شرفه فى سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه (أولها) أنهم يرون الجحيم (وثانيها) أنهم يرونها عين اليقين (وثالثها) أنهم يسألون عن النعيم

ثم شرف أمته فى سورة والعصر بأمور ثلاثة (أولها) الإيمان (إلا الذين آمنوا) ، (وثانيها) وعملوا الصالحات (وثالثها) إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ،

ثم شرفه فى سورة الهمزة بأن ذكر أن من همز ولمز ، فله ثلاثة أنواع من العذاب (أولها) أنه لا ينتفع بدنياه البتة ، وهو قوله (يحسب أن ماله أخلده كلا) (وثانيها) أنه ينبذ فى الحطمة ، (وثالثها) أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء فى الخروج ، وهو قوله (إنها عليهم مؤصدة) .

ثم شرفه فى سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه فى نحرهم من ثلاثة أوجه (أولها) جعل كيدهم فى تضليل (وثانيها) أرسل عليهم طيراً أبابيل (وثالثها) جعلهم كعصف مأكول .

ثم شرفه فى سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه (أولها) جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش (وثانيها) أطعمهم من جوع (وثالثها) أنه آمنهم من خوف .

وشرفه فى سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة (أولها) الدناءة واللؤم ، وهو قوله (يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) (وثانيها) ترك تعظيم الخالق ، وهو قوله (عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) (وثالثها) ترك انتفاع الخلق ، وهو قوله (ويمنعون الماعون) .

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه فى هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة فى السورة المتقدمة التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم ، أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله (وانحر) وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، فهو قوله (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله (يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم ، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم فى نصرة أديانهم ، فلا جرم كان الطعن فى مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا فى غاية العداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف

كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا ، كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة ، هذه السورة فإن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه (أحدها) أن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أي الخير الكثير في الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ ، وهو كقوله (يا أيها النبي حسبك الله) وقوله (والله يعصمك من الناس) وقوله (إلا تنصروه فقد نصره الله) ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه ، فإنه لا يخشى أحداً (وثانيها) أنه تعالى لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف في كلام الله تعالى محال ، فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة (وثالثها) أنه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا ، فقال الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) أي لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر بما لهم ومراعاتهم (ورابعها) أن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله (وكلم الله موسى تكليما) بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى ، بل يفيد قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة (قل يا أيها الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمري ، فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع ، أن أهل الدنيا يدخلون في دين الله افواجا ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن ، وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة ، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات ، وقد ثبت في العلوم العقلية أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع ، ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات

الله وشرح جلاله ، وهو سوره (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته فى سورة (قل أعوذ برب الفلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية ، وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة فى كتابه الكريم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ فى قوله (إنا أعطيناك الكوثر) هى أن كلمة (إنا) تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما (الأول) فقد دل الدليل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى فى تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم إرسالك ، فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال موسى : رب اجعلنى من أمة أحمد . وهو المراد من قوله (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) وبشر بك المسيح فى قوله (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وأما (الثانى) وهو أن يكون ذلك محمولا على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب فى قوله تعالى (إنا أعطيناك) والهبة هى الشىء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة فى الكثرة ، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيالها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، وياله من تشريف ما أعلاه .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدى العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيما ، لا لأن لذة الهدية فى نفسها ، بل لأن صدورها من المهدى العظيم يوجب كونها عظيمة ، فههنا الكوثر وإن كان فى نفسه فى غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالا .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أنه لما قال (أعطيناك) قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبى حنيفة أنه يجوز للأجنبى أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوى ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوى فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فههنا لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه بنى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه ، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفى الشبهة

ومن ههنا تعرف الفخامة فى قوله (فإنهـا لا تعمى الأبصار) فإنه أكثر فخامة مما لو قال فإن الأبصار لا تعمى ، ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بأمرك . وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيما . فلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك فى الوفاء به ، فإذا أسند إلى المتكفل العظيم ، فحينئذ يزول ذلك الشك ، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شيء عظيم ، قلما تقع المسامحة به . فلما قدم المبتدأ ، وهو قوله (إنا) صار ذلك الإسناد مزيلا لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة .

﴿ الفائدة السادسة ﴾ أنه تعـالى صدر الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم . وكلام الصادق مصون عن الخلف ، فكيف إذا بالغ فى التأكيد .

﴿ الفائدة السابعة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل سنعطيك لأن قوله (أعطيناك) يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلا فى المـاضى ، وهذا فيه أنواع من الفوائد (إحداها) أن من كان فى الزمان الماضى أبداً عزيزاً مرعى الجانب مقضى الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام « كنت نبياً وآدم بين المـاء والطين » (وثانيها) أنهـا إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والاغناء والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلا فى الأزل (وثالثها) كأنه يقول إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبـل دخولك فى الوجود ، فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ! (ورابعها) كأنه تعالى يقول نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعـد إقدامك على الطاعة ، بل إنمـا اخترناك بمجرد الفضـل والاحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام « قبل من قبـل لا لعلة ، ورد من رد لا لعلة » .

﴿ الفائدة الثامنة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف . فلما قال (أعطيناك) علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلا بل هى محض الاختيار والمشيئة ، كما قال (نحن قسمنا ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) .

﴿ الفائدة التاسعة ﴾ قال أولا (إنا أعطيناك) ثم قال ثانياً (فصل لربك وانحر) وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشـاد سابق على طاعاتنا ، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا ، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة فى صفة الخالق إنمـا المؤثر هو صفة الخالق فى صفة الخلق ، ولهذا نقل عن الواسطى أنه قال لا أعبـد رباً يرضيه طاعتى ويسخطه معصيتى . ومعناه أن رضاه وسخطه قديمـان وطاعتى ومعصيتى محدثتان والمحدث لا أثر له فى قديم ، بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لا يزال ، وكذا القول فى السخط والمعصية .

﴿ الفائدة العاشرة ﴾ قال (أعطيناك الكوثر) ولم يقل آتيناك الكوثر ، والسبب فيه أمران

(الأول) أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلا ، وأما الإعطاء فانه بالتفضل أشبه فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة ، محض التفضل منا إليك وليس منه شىء على سبيل الاستحقاق والوجوب ، وفيه بشارة من وجهين (أحدهما) أن الكريم اذا شرع فى التربية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله ، وكرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله (أعطيناك) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً . فإن قيل : أليس قال (آتيناك سبعاً من المثانى) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن الإعطاء يوجب التمليك ، والملك سبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان (هب لى ملكاً) فقال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيافاً له ، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال فى القرآن (آتيناك) فإنه لا يجوز للنبى أن يكتم شيئاً منه (الثانى) أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة فى النهر ، فهى شركة فى الأعيان وهى عيب (الوجه الثانى) فى بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، قال الله تعالى (وأعطى قليلا وأكدى) أما الإيتاء ، فلا يستعمل إلا فى الشىء العظيم ، قال الله تعالى (وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلا) والأتى السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (أحدها) يعنى هذا الحوض كالشىء القليل الحقير بالنسبة إلى ماهو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هى أعظم من هذا المذكور (وثانيها) أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثراً ، فيكف سائر النعيم (وثالثها) أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء (ورابعها) كأنه تعالى يقول هذا الذى أعطيتك ، وإن كان كوثراً لكنه فى حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك ، وفى العادة أن المهدى إذا كان عظيما فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال إنها حقيرة أى هى حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدى له فكذا ههنا (وخامسها) أن نقول إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه دنيا ، والقرآن إيتاء لأنه دين (وسادسها) كأنه يقول : جميع ما نلت منى عطية وإن كانت كوثراً إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفراً وخصمك أبتر ، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر ، أما الذكر الباقى والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك (فصل لربك وانحر) أى فاعبد لى وسل الظفر بعد العبادة فإنى أوجبت على كرمى أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة ، كذا روى فى الحديث المسند ، فحينئذ أستجيب فيصير

خصمك أبتر وهو الإيتاء ، فهذا ما يخطر بالبال فى تفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك) أما الكوثر فهو فى اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، أى بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر ، قال الكميت :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر فى اللغة ، واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر فى الجنة ، روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت ماهذا ؟ قيل الكوثر الذى أعطاك الله » وفى رواية أنس «أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان » ولعله إنما سمى ذلك النهر كوثراً إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روى أنه ما فى الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، أو لكثرة الذين يشربون منها ، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال عليه السلام « إنه نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير » (القول الثانى) أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول ، والقول الأول أن يقال لعل النهر ينصب فى الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع (والقول الثالث) الكوثر أولاده قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ، ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بنى أمية فى الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم (القول الرابع) الكوثر علماء أمته وهو لعمرى الخير الكثير لأنهم كأنبياء بنى إسرائيل ، وهم يحيون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين فى الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه ، لكنهم مختلفون فى فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين (أحدهما) أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبى ويتبعه أمته فربما يجىء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعى بعض العلماء على عدد متبعى ألف من الأنبياء (الوجه الثانى) أنهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحى ، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الإستنباط والإجتهاد ، أو على قول البعض إن كان بعضهم مخطئاً لكن المخطىء يكون أيضاً مأجوراً (القول الخامس) الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التى هى ثانية الربوبية

ولهذا قال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وهو شطر الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لابد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته ، ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخبرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين ، وهو الذي يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى . ولنذكر ههنا قليلا منها ، فنقول

إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال (صحف إبراهيم وموسى) أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال (ومهيمناً عليه) وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنثورة فقال (أنبئوني بأسماء هؤلاء) ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل في محمد ﷺ ما هو أعظم منه . روى أن النبي عليه الصلاة والسلام « كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فقال لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذي أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدي الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبي ﷺ يكفيك هذا ؟ قال حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبي عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل في حق محمد أعظم من ذلك . عن محمد بن حاطب قال « كنت طفلا فانصب القدر على من النار ، فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى الرسول ﷺ وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله ﷺ على جلدي ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب الباس ، رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بي » وأكرم موسى ففلق له البحر في الأرض ، وكرم محمداً ففلق له القمر في السماء ، ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، وفجر له الماء من الحجر ، وفجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظلله ، وأكرم موسى باليد البيضاء . وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم ، الذي وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار في يده وبد أصحابه ، وكان داود إذا مسك الحديد لان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، روى

أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء ، وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص ، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عمه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة ، وفعل ذلك أيضا للرسول حين نام ورأسه فى حجر على فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى ، وردها مرة أخرى لعلى فصلى العصر فى وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك فى حق محمد ، روى أن طيراً فجع بولده فجعل يرفوف على رأسه ويكلمه فقال أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل أنا ، فقال اردد إليها ولدها ! وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيرة غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس فى ساعة ، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجىء به ، وقدشكوا إليه من ناقة أنها أغيلت ، وأنهم لا يقدرون عليها فذهب إليها ، فلما رأته خضعت له ، وأرسل معاذا إلى بعض النواحى ، فلما وصل إلى المفازة ، فإذا أسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجر [ىء] أن يرجع ، فتقدم وقال إنى رسول رسول الله فتبصبص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابى بالضب ، وقال لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، فتكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابى رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة وحنت الحنانة لفراقه ، وحين لسعت الحية عقب الصديق فى الغار ، قالت كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتنى عنه ! وأطعم الخلق الكثير ، من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد ، فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثراً ، فقال (إنا أعطيناك الكوثر (القول السادس) الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى) (القول السابع) الكوثر الإسلام ، وهو لعمرى الخير الكثير ، فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة . وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والاسلام عبارة عن المعرفة ، أو مالا بد فيه من المعرفة ، قال (ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر ، فإن قيل لم خصه بالاسلام ، مع أن نعمه عمت الكل ؟ قلنا لأن الاسلام وصل منه إلى غيره ، فكان عليه السلام كالأصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الأتباع والأشياع ، ولا شك أن له من الأتباع مالا يحصيهم إلا الله ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال « أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشرى عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة ، فبينا أكون مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فنبتدرهم بأبصارنا ما منا من نبى إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء ، فأقول أمتى ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يظهر لنا مثلا ما ظهر أولا

فنبتدرهم بأبصارنا ما من نبي إلا ويرجو أن تكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول أمتي ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فنبتدرهم ، وذكر كما ذكر في المرة الأولى والثانية ، ثم قال (ليدخلن) ثلاث فرق من أمتي الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس » ولقد قال عليه الصلاة السلام « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ، ولو بالسقط » فإذا كان يباهي بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجم الغفير ، فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال (إنا أعطيناك الكوثر) (القول التاسع) (الكوثر) الفضائل الكثيرة التي فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثير الخير ، وفي صحاح اللغة (الكوثر) السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول (إنا أعطيناك الكوثر) (القول العاشر) الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره في قوله (ورفعنا لك ذكرك) (القول الحادي عشر) أنه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه (أحدها) أن العلم هو الخير الكثير قال (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأمره بطلب العلم ، فقال (وقل رب زدني علما) وسمى الحكمة خيرا كثيراً ، فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) (وثانيها) أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة داخلة في العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم (وثالثها) أنه لما قال (أعطيناك الكوثر) قال عقيبه (فصل لربك وانحر) والشيء الذي يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال في سورة النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وقال في طه (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) فقدم في السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب في قوله (فصل) تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم ، (القول الثاني عشر) أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل ، فأما الانتفاع بالعلم ، فهو مختص بالعقلاء ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفي مهمهم ، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه ، قال « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » (القول الثالث عشر) الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة ، فقال في الدنيا (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وقال في الآخرة « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » وعن أبي هريرة قال عليه السلام « إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » (القول الرابع عشر) أن المراد من الكوثر هو هذه السورة ، قال وذلك لأنها مع

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾

قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه (أولها) أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الاتباع ، أو على كثرة الأولاد ، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب ، وقد وقع مطابقاً له ، فكان معجزاً (وثانيها) أنه قال (فصل لربك وانحر) وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر ، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب (وثالثها) قوله (إن شانئك هو الأبتر) وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً (ورابعها) أنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها ، فثبت أن وجه الإعجاز فى كمال القرآن ، إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع ، وتقرر الدين والاسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية باثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة فى الصورة كبيرة فى المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهى أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهى بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد فى سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة (القول الخامس عشر) أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة ، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقى فوجب حملها على الكل ، وروى أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يقتضى أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله نهر كالواقع إلا أن الحقيقة ماقدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه فى حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكنه أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضيعة له يصح أن يقال إنه أعطاه تلك الضيعة مع أن الصبي فى تلك الحال لا يكون أهلا للتصرف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (فصل) وجوه (الأول) أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن قيل اللائق عند النعمة الشكر ، فلم قال فصل ولم يقل فاشكر ؟ (الجواب) من وجوه (الأول)

أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان (أحدها) يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره (والثانى) باللسان وهو أن يمدحه (والثالث) بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هذه المعانى ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن . (وثانيها) أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه ما كان شاكراً لكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكراً لنعمه ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحى ، قال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) (الثالث) أنه فى أول ما أمره بالصلاة . قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلى ولست على الوضوء ، فقال الله (إنا أعطيناك الكوثر) ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك فصل ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة ، فكأنه قال أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك (القول الثانى) فصل لربك أى فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا فى فائدة الفاء فى قوله فصل وجوهاً (أحدها) التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخى (وثانيها) أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم إنه خص محمداً ﷺ فى هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ولأنه قال له (فإذا فرغت فانصب) أى فعليك بأخرى عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتى إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع فى الشكر عقيب ذلك (القول الثالث) فصل أى فادع الله لأن الصلاة هى الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك (بالكوثر) فكيف بعد سؤالك لكن «سل تعطه واشفع تشفع» وذلك لأنه كان أبداً فى هم أمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (وانحر) قولان :

(الأول) وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن (والقول الثانى) أن المراد بقوله (وانحر) فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو فيها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوها : (أحدها) قال الفراء معناها استقبل القبلة (وثانيها) روى الأصبغ بن نباتة عن على عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل « ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » (وثالثها) روى عن على بن أبى طالب أنه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر فى الصلاة ، وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع (ورابعها) قال عطاء معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك (وخامسها) روى عن الضحاك ، وسليمان التيمى أنهما قالا (انحر)

معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحرك ، قال الواحدى ، وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذى هو الصدر يقال لمذبح البعير النحر لأن منحره فى صدره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر فمعنى النحر فى هذا الموضع هو إصابة النحر كما يقال رأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه . وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابى النحر انتصاب الرجل فى الصلاة بازاء المحراب وهو أن ينصب نحره بازاء القبلة ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالا ، وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد :

أبا حكم هل أنت عم مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول الكعبة بيتى وهى قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتى ونظر عنايتى فلتكن القبلتان متناحرتين قال الأكثرون حمله على نحر البدن أولى لوجوه (أحدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها (وثانيها) أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقيل له فصل وانحر لربك (وثالثها) أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله (فصل لربك) فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشىء على جميعه (ورابعها) أن قوله (فصل) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله (وانحر) إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لاتخرج عن هذين الأصلين (وخامسها) أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله فى سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبى عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله (واتبعوه) ولقوله (فاتبعونى يحببكم الله) وأصحابنا قالوا الأمر بالمتابعة مخصوص بقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف من فسر قوله (فصل) بالصلاة على وجوه (الأول) أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصلى ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بين كيفية هذه الصلاة أجاب أبو مسلم ، وقال أراد به الصلاة المفروضة أعنى الخمس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل (القول الثانى) أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون هذا قول ضعيف لأن عطف الشىء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب (القول الثالث) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى ، والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام فى قوله (لربك) فيها فوائد (الفائدة الأولى) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً ممدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود ، وإن حسنت فى الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى لموسى (وأقم الصلاة لذكرى) وقيل إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له لتكن صلاتك ونحرك لله .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ كأنه تعالى يقول ذكر فى السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءآة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفاء فى قوله (فصل) تفيد سببية أمرين (أحدهما) سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية (والثانى) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أبتر فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء فى قوله (فصل) اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لاجرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبى عليه الصلاة والسلام فقال « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له أوليس قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تاخر ؟ فقال « أفلا أكون عبداً شكوراً » فقوله « أفلا أكون عبداً شكوراً » إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء فى قوله (فصل) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كان الأليق فى الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لنا وانحر . لكنه ترك ذلك إلى قوله (فصل لربك) لفوائد (إحداها) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة (وثانيها) أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين (وثالثها) أن قوله (إنا أعطيناك) ليس فى صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضاً كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال صل لنا ، لنفى ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك ، فلهذا ترك اللفظ ، وقال (فصل لربك) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد فى الطاعة والعمل لله تعالى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله (فصل لربك) أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) ويفيد الوعد الجميل فى المستقبل أنه يربيه ولا يتركه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى الآية سؤالان : ﴿ أحدهما ﴾ أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ (والثانى) لما لم يقل ضحى حتى يشمل جميع أنواع

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

الضحايا ؟ (والجواب) عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالأمر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة ، فلوجوه (أحدها) أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له اجعلهما لله (وثانيها) أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل فى ملكه شىء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجباً عليه لقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتى : الضحى والأضحى والوتر » (وثالثها) أن أعز الأموال عند العرب ، هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها ، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله ، فلما أخذ على السكين تباعدت منه (والجواب عن الثانى) أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام « ابدءوا بما بدأ الله به » .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ السورة مكية فى أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة ، وزوال الفقر والخوف .

قوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد ، والعاص بن وائل السهمى يدخل فالتقيا فتحدثا ، وصناديد قريش فى المسجد ، فلما دخل قالوا من الذى كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتر ، وأقول إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض ، مع أن الله تعالى أظهره ، فحينئذ يكون ذلك معجزاً ، وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبى وعامة أهل التفسير (القول الثانى) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشراف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه ، يزعم أنه خير منا ؟ فقال بل أنتم خير منه فنزل (إن شانئك هو الأبتر) ونزل أيضاً (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) ، (والقول الثالث) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام ، قالوا بتر محمد أى خالفنا وانقطع

عنا ، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون (القول الرابع) نزلت فى أبى جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل إنى أبغضه لأنه أبتر ، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الإبن لم يكن مراده (القول الخامس) نزلت فى عمه أبى لهب فانه لما شافهه بقوله تباً لك كان يقول فى غيبته إنه أبتر (والقول السادس) أنها نزلت فى عقبة بن أبى معيط ، وإنه هو الذى كان يقول ذلك ، واعلم أنه لا يبعد فى كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشنآن هو البغض . والشانىء هو المبغض ، وأما البتر فهو فى اللغة استئصال القطع يقال بترته أبتره بتراً وبتر أى صار أبتر وهو مقطوع الذنب ، ويقال للذى لا عقب له أبتر ، ومنه الحمار الأبتر الذى لاذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فانك إذا قلت زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام إنه أبتر لاشك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه .

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات (أما الأول) فيحتمل وجوهاً (أحدها) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فانا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة (وثانيها) قال الحسن عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك ، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة (وثالثها) زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب (ورابعها) الأبتر هو الحقير الذليل ، روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلا حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد فى أن يصرعه ، وبقى النبى عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبى صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه ، فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء ، فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله (إن شانئك هو الأبتر) هذه الواقعة (وخامسها) أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل (إن شانئك هو

الأبتر) أى الذى قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى ، وأما المدح الذى ذكرناه فيك ، فإنه باق على وجه الدهر (وسادسها) أن رجلا قام إلى الحسن بن على عليهما السلام ، وقال : سودت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية ، فقال لا تؤذينى يرحمك الله ، فإن رسول الله رأى بنى أمية فى المنام يصعدون منبره رجلا فرجلا فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فكان ملك بنى أمية كذلك ، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكفار لما شتموه ، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وهكذا سنة الأحباب ، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه ، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم ، وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذباً أم به جنة) فقال سبحانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وحين قالوا هو مجنون أقسم ثلاثاً ، ثم قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ولما قالوا (لست مرسلا) أجاب فقال (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) وحين قالوا (أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) رد عليهم وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فصدقه ، ثم ذكر وعيد خصمائه ، وقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) وحين قال حاكياً (أم يقولون شاعر) قال (وما علمناه الشعر) ولما حكى عنهم قولهم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) سماهم كاذبين بقوله (فقد جاؤا ظلماً وزوراً) ولما قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) أجابهم فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فما أجل هذه الكرامة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة ، وعلم تعالى أن النعمة لاتهنأ إلا إذا صار العدو مقهوراً ، لا جرم وعده بقهر العدو ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وفيه لطائف (إحداها) كأنه تعالى يقول : لا أفعله لكى يرى بعض أسباب دولتك ، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانيها) وصفه بكونه شانئاً ، كأنه تعالى يقول : هذا الذى يبغضك لا يقدر على شىء آخر سوى أنه يبغضك ، والمبغض إذا عجز عن الإيذاء ، فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً ، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبتر ، لأنه كان شانئاً له ومبغضاً ، والأمر بالحقيقة كذلك ، فإن من عادى محموداً فقد عادى الله تعالى ، لا سيما من تكفل الله بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، فقلب الله الأمر عليه ، وقال العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله . فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام ، والأبترية والدناءة والذلة للعدو ، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن من تأمل فى مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التى

ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة فى البحر . روى عن مسيلمة أنه عارضها فقال : إناعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك رجل كافر ، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه (أحدها) أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة (وثانيها) أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها ، وكالأصل لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالا لأكثر لطائف هذه السورة (وثالثها) التفاوت العظيم الذى يقر به من له ذوق سليم بين قوله (إن شانئك هو الأبتر) وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فالله سبحانه مدحه مدحاً أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله (أنا أعطيناك الكوثر) لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشىء دون شىء ، لاجرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيئان ، لأن طاعة البدن هى الصلاة ، وطاعة المال هى الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتى بشىء إلا لأجل الله ، واللام فى قوله (لربك) يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن فى الذكر ، وهو قوله (فصل) وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيها على فساد مذهب أهل الإباحة فى أن العبد قد يستغنى بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحه ، وعلى أنه لا بد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله فى المعاد ، كأنه يقول : كنت ربيتك قبل وجودك ، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولا بإفاضة النعم عليه تكفل فى آخر السورة بالذب عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم ، والآخر بتكميل النعم فى الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

❁

تفسير سورة «الكوثر»

وهي مكيةٌ في قولِ ابن عباسٍ والكلبيّ ومقاتلٍ(١). ومدنِيةٌ في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومجاهدٍ وقتادة(٢). وهي ثلاثُ آيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قراءةُ العامة: «إِنَّا أَعْطيناك» بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: «أَنْطَيْنَاكَ» بالنون؛ ورَوَتْه أمُّ سلمة عن النبيّ ﷺ(٣)؛ وهي لغةٌ في العطاء؛ أنطيتُه: أعطيته.

و«الكوثر»: فَوْعَل من الكثرة، مثل: النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعربُ تسمِّي كلَّ شيءٍ كثيرٍ في العدد والقَدْرِ والخَطَرِ كوثراً(٤). قال سفيان: قيل لعجوزٍ رجع ابنُها من السفر: بِمَ آبَ ابنُكِ؟ قالت: بكوثر، أي: بمالٍ كثير(٥). والكوثرُ من الرجال: السيدُ الكثيرُ الخيرِ؛ قال الكُميت:

وأنت كثيرٌ يا ابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ ... وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثرا(٦)

والكوثر: العددُ الكثيرُ من الأصحاب والأشياع. والكوثرُ من الغبار: الكثير، وقد تَكَوْثَر؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠١ .

(٢) زاد المسير٩/ ٢٤٧ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٨١ والكشاف ٤/ ٢٩٠ ، وحديث أم سلمة أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ (٨٦٢). وفي إسناده عمرو بن عبيد، قال عنه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٨ : واهي الحديث.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩٠ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٢٤ .

(٦) ديوان الكميت ص ١٧٧ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٨ ، والصحاح (كثر) والكلام منه.

وقد ثارَ نَقْعُ الموتِ حتى تَكَوْثَرا[١]

الثانية: واختلف أهلُ التأويل في الكوثر الذي أُعطِيَه النبيُّ ﷺ على ستةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنَّه نهرٌ في الجنة؛ رواه البخاريُّ عن أنس والترمذيُّ أيضاً[٢]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣].

وروى الترمذيُّ أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثرُ نهرٌ في الجنة، حافَتَاه من ذهب، ومَجْراهُ على الدرِّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أَحْلَى من العسل وأبيضُ من الثلج». هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٤].

الثاني: أنَّه حوضُ النبيِّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء[٥]. وفي «صحيح» مسلم[٦] عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أَغْفَى[٧] إغفاءةً، ثم رفع رأسَه مُتبَسِّماً، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ» فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعْلَمُ. قال: «فإنَّه نهرٌ وَعَدَنيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أمَّتي يومَ القيامةِ، آنِيتُهُ عددُ النُّجُوم، فيُخْتلَجُ العبدُ منهم، فأقولُ: إنَّه من أمَّتي، فيقال: إنَّك لا تَدْري ما أَحْدَثَ بَعْدَك».

---

(١) الصحاح (كثر)، وصدر البيت: أبَوْا أن يبيحوا جارَهم لعدوهم، وقائله حسان بن نُشْبَةَ التيمي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ٣٣٨ ، وأساس البلاغة (كثر)، واللسان (كثر). وذكر التبريزي في شرح ديوان الحماسة ١/ ١٧٦ عن ابن الأعرابي أن الصواب في اسمه: جِسّاس مثل عِساس.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٨١) و(٧٥١٧)، وسنن الترمذي (٣٣٥٩)، وهو عند أحمد (١٢٠٠٨) و(١٢٩٨٩).

(٣) ص ٤٤٦ .

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦١)، وهو عند أحمد (٥٣٥٥).

(٥) أخرجه عنه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨ ، والطبري ٢٤/ ٦٨٥ .

(٦) برقم (٤٠٠)، وهو عند أحمد (١١٩٩٦).

(٧) في صحيح مسلم: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهُرِنا إذ أغفى...

والأخبارُ في حوضه في الموقف كثيرةٌ، ذكرناها في كتاب «التذكرة»[١]، وأنَّ على أركانه الأربعةِ خُلَفاءَه الأربعةَ رضوانُ الله عليهم، وأنَّ مَن أَبْغَضَ واحدًا منهم لم يَسْقِه الآخَر[٢]؛ وذكرنا هُناكَ مَن يُطْرَد عنه[٣]. فَمَن أراد الوقوفَ على ذلك تأمَّلَه هناك.

ثم يجوزُ أن يسمَّى ذلك النهرُ أو الحوضُ كوثراً، لكثرة الواردةِ والشَّارِبةِ من أمّةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام هناك. ويسمَّى به لمَا فيه من الخيرِ الكثير والماء الكثير.

الثالث: أنَّ الكوثر النبوةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة[٤].

الرابع: القرآن؛ قاله الحسن.

الخامس: الإسلام؛ حكاه المغيرة.

السادس: تيسيرُ القرآن وتخفيفُ الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل.

السابع: هو كثرةُ الأصحابِ والأمةِ والأشياعِ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب.

الثامن: أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان[٥].

التاسع: أنه رِفْعةُ الذِّكر. حكاه الماوَرْديّ[٦].

---

(١) ص٣٠٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٦٣)، وابن الجوزي في العلل (٤٠٨) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) وردت في هذا أحاديث، منها ما سلف آنفاً من حديث أنس ﷺ عند مسلم، ومنها ما أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها. ومنها حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عند البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧). ومنها حديث سهل بن سعد عند البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠)، وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩١). وجميعها بنحو ما ورد في حديث أنس السالف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨ ، والطبري ٢٤/ ٦٨٤ . ووقع عند ابن أبي شيبة: النبوة والإسلام.

(٥) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ .

(٦) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

العاشر: أنه نورٌ في قلبكَ دلَّك عَليَّ، وقَطَعَكَ عمَّا سوايَ [قاله جعفر الصادق] وعنه: هو الشفاعةُ[١]، وهو الحادي عشر.

وقيل: معجزاتُ الربِّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابةِ لدعوتك؛ حكاه الثعلبيُّ، وهو الثاني عشر.

الثالث عشر: قال هلال بنُ يِسَاف: هو لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسول الله[٢].

وقيل: الفقهُ في الدين. وقيل: الصلواتُ الخمس؛ وهما الرابعُ عَشَرَ والخامسُ عشر.

وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر، وذكر بيتَ لَبِيد:

وصاحبُ مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفَقْدِهِ ... وعِندَ الرُّداعِ بيتُ آخرَ كَوْثرِ[٣]

أي: عظيم.

قلت: أصحُّ هذه الأقوالِ الأوّلُ والثاني؛ لأنَّه ثابتٌ عن النبيِّ ﷺ نصٌّ في الكوثر. وسمِع أنسٌ قوماً يتذاكرون الحوضَ فقال: ما كنتُ أرى أنْ أعيشَ حتى أرى أمثالكم يَتَمارَوْن في الحوض، لقد تركتُ عجائزَ خَلْفي، ما تصلِّي امرأةٌ منهنَّ إلَّا سألتِ اللهَ أنْ يسقِيَها من حوضِ النبيِّ ﷺ. وفي حوضِه يقولُ الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا ... وأنتَ حَقًّا حبيبُ باريكَا[٤]

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيَه رسولُ الله ﷺ زيادةً على حوضه،

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ بلفظ: هو التوحيد.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٤، وديوان لبيد ص ٥٢. وفيهما: فجعنا بيومه. وملحوب: اسم ماء لبني أسد ابن خزيمة. ورُداع بالضم ـ وقيل: بالكسر ـ ماء لبني الأعرج بن كعب. معجم البلدان ٥/ ١٩١ و٣/ ٣٩. قال ابن هشام: صاحب ملحوب عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب؛ مات بملحوب. وقوله: وعند الرداع...، يعني شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، مات بالرداع.

(٤) لم نقف عليه.

صلى الله عليه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي: أَقِمِ الصلاةَ المفروضةَ عليك؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس[١].

وقال قتادةُ وعطاءٌ وعِكرمةُ: «فصلِّ لِربِّك» صلاةَ العيدِ يومَ النحر، «وانْحَرْ» نُسُكَك[٢]. وقال أنس: كان النبيُّ ﷺ ينحر ثم يصلِّي، فأُمِر أنْ يُصَلِّي ثم يَنْحر[٣].

وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجَمْعٍ، وانْحرِ البُدْنَ بمِنًى[٤]. وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَة حين حُصِر النبيُّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحرَ البُدْنَ وينصرف، ففعل ذلك[٥]. قال ابن العربيِّ[٦]: أمَّا مَن قال: إنَّ المراد بقوله تعالى: «فَصَلِّ»: الصلواتُ الخمسُ؛ فلِأنَّها ركنُ العباداتِ، وقاعدةُ الإسلامِ، وأعظمُ دعائمِ الدِّين. وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الصبحِ بالمزدَلِفة؛ فلأنَّها مقرونةٌ بالنَّحْر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاةَ فيه قبلَ النَّحرِ غيرها، فخصَّها بالذِّكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنَّحْر.

قلت: وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ العيد، فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكةَ صلاةُ عيدٍ بإجماعٍ، فيما حكاه أبو عمر[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٣ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٤ ، وأخرج قولهم الطبري ٢٤/٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٢ ، وجمع هي المزدلفة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٦٩٥ - ٦٩٦ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ .

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ .

(٧) في (د) و(م): ابن عمر.

قال ابن العربيِّ[١]: فأمَّا مالكٌ فقال: ما سمعتُ فيه شيئًا، والذي يقع في نفسي أنَّ المراد بذلك صلاةُ يومِ النحرِ، والنحرُ بعدها.

وقال عليٌّ ﷺ ومحمد بن كعب: المعنى: ضَعِ اليُمْنَى على اليسرى حِذاءَ النَّحرِ في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً[٢].

وروي عن عليٍّ أيضًا: أن يرفع يديه في التكبير إلى نَحْرِه[٣]. وكذا قال [أبو] جعفر بن عليٍّ: «فَصَلِّ لربِّكَ وانحر» قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر[٤]. وعن عليٍّ ﷺ قال: لمَّا نزلت: «فَصَلِّ لربِّك وانحر» قال النبيُّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النَّحِيرةُ التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليستْ بنحيرةٍ، ولكنَّه يأمرك إذا تحرَّمْتَ للصلاة، أنْ ترفع يديكَ إذا كَبَّرت، وإذا رفعتَ رأسك من الركوع، وإذا سجدتَ، فإنَّها صلاتُنا وصلاةُ الملائكةِ الذين هم في السماوات السبع، وإنَّ لكلِّ شيءٍ زينةً، وإنَّ زينةَ الصلاةِ رفعُ اليدين عند كلِّ تكبيرة»[٥].

وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: استَقْبِلِ القبلةَ بنَحْرِكَ؛ وقاله الفرَّاء والكلبيُّ وأبو الأحوص، ومنه قول الشاعر:

أبا حَكَمٍ ما أَنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ وسَيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المُتَناحِرِ[٦]

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ عن علي وابن عباس، وأخرجه عن علي عبد الرزاق ٢/ ٤٠١ ، والطبري ٢٤/ ٦٩٠ - ٦٩١ ، والدارقطني (١٠٩٩). وعن ابن عباس أخرجه إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٤٣ ، والبيهقي ٢/ ٣١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٢ ، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٧٧ ، والحاكم ٢/ ٥٣٧ ، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: حديث منكر جدًّا. اهـ. وقال ابن حبان: هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه. اهـ. وسيأتي الكلام في رفع اليدين في المسألة الخامسة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٦ ، وأخرج القول عن أبي الأحوص ابن =

أي: المتقابل. قال الفرَّاء: سمعتُ بعضَ العربِ يقول: منازلنا تتناحر ـ أي: تتقابل ـ نحرُ[١] هذا بنحر هذا، أي: قُبالته. وقال ابن الأعرابيِّ: هو انتصابُ الرجلِ في الصلاةِ بإزاءِ المِحراب؛ من قولهم: منازلُهم تتناحَر، أي: تتقابل[٢].

ورُوي عن عطاء قال: أَمَره أن يستويَ بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره.

وقال سليمان التَّيمِيُّ: يعني: وارْفَعْ يدَكَ بالدعاء إلى نحرك.

وقيل: «فَصَلِّ» معناه: فاعبُدْ. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ يقول: إنَّ ناساً يصلُّون لغير الله، وينحرون لغير الله، وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتُك ولا نَحْرُك إلَّا لله[٣].

قال ابن العربيِّ[٤]: والذي عندي أنه أراد: اعبُدْ ربَّك، وانْحَرْ له، فلا يكن عملك إلَّا لمَن خصَّك بالكوثر، وبالْحَرَى[٥] أن يكون جميعُ العملِ يوازي هذه الخُصوصيةَ من الكوثر، وهو الخيرُ الكثير الذي أعطاكَه الله، أو النهرُ الذي طِينُه مسكٌ، وعددُ آنيتِه نجومُ السماء، أمَّا أنْ يوازِيَ هذا صلاةُ يومِ النَّحر، وذبحُ كبشٍ أو بقرةٍ أو بَدَنةٍ، فذلك يبعدُ في التقدير والتدبير، وموازنة الثوابِ للعبادة. والله أعلم.

الثانية: قد مضى القولُ في سورة الصَّافَّات في الأُضحِية وفَضْلِها ووقتِ ذَبْحِها[٦]؛ فلا معنًى لإعادةِ ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة الحج جملةً من أحكامها[٧].

= أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣ . ووقع عند الفراء: أبا حكم ها أنت...، وفي النكت والعيون: هل أنت.

(١) قوله: نحر، ليس في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ .

(٢) بنحوه في تهذيب اللغة ٥/ ١١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٥ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ ، والبغوي ٤/ ٥٣٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٦ .

(٥) الحَرَى: الخليق، كقولك: بالحَرَى أن يكون ذلك، وإنه لحَرًى بكذا وحَرٍ وحَرِيٌّ. اللسان (حري).

(٦) عند تفسير الآية (١٠٧)، في المسألة الثامنة وما بعد .

(٧) ينظر ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.

قال ابن العربيِّ[١]: ومن عجيب الأمر أنَّ الشافعيَّ قال: إنَّ مَن ضحَّى قبل الصلاةِ أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيُّ ﷺ ـ في البخاريِّ وغيره[٢]، عن البراء بن عازب قال ـ: «أوّلُ ما نَبْدَأ به في يومنا هذا أن نُصَلِّيَ، ثم نَرْجِعَ فننحرَ، مَن فَعَلَ فقد أصاب نُسُكنا[٣]، ومَن ذَبَح قبلُ، فإنَّما هو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُّسُك في شيءٍ». وأصحابُه ينكرونه، وحبَّذا الموافقة.

الثالثة: وأمَّا ما روي عن عليٍّ عليه السلام: «فصلِّ لِربك وانحر» قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. خرَّجه الدارَقُطْنيّ[٤]، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأوّل: لا توضع في فريضةٍ ولا نافلة؛ لأنَّ ذلك من باب الاعتماد، ولا يجوزُ في الفرض، ولا يستحبُّ في النفل.

الثاني: لا يفعلُها في الفريضة، ويفعلُها في النافلة استعانةً؛ لأنَّه موضعُ ترخُّصٍ.

الثالث: يفعلُها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيحُ؛ لأنَّه ثبت أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حُجْرٍ وغيرِه[٥]. قال ابن المنذر: وبه قال مالك وأحمدُ وإسحاقُ، وحُكي ذلك عن الشافعيِّ. واستَحَبَّ ذلك أصحابُ

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٧٨ .

(٢) صحيح البخاري (٩٦٥)، وهو عند أحمد (١٨٤٨١)، ومسلم (١٩٦١): (٧)، وسلف ١٤/ ٣٦٧ .

(٣) في مصادر التخريج: سنَّتنا، والمثبت من النسخ وأحكام القرآن.

(٤) في سننه (١٠٩٩)، وسلف في المسألة الأولى.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٧٨ . وحديث وائل بن حجر أخرجه أحمد (١٨٨٦٦)، ومسلم (٤٠١). وأخرج أحمد (٢٢٨٤٩)، والبخاري (٧٤٠) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة. قال أبو حازم: لا أعلمه إلا يَنْمي ذلك إلى النبي ﷺ.

الرأي. ورأت جماعةٌ إرسالَ اليد. وممَّن روينا ذلك عنه ابن الزبير[١] والحسن البصريُّ وإبراهيم النخعِيّ[٢].

قلت: وهو مَرْوِيٌّ أيضاً عن مالك. قال ابن عبد البرّ[٣]: إرسالُ اليدين، ووضعُ اليمنى على الشمال، كلُّ ذلك من سنَّة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضعُ عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السُّرَّة. وقال: لا بأسَ إن كانت تحت السرَّة. وقالت طائفةٌ: توضع تحت السرَّة. وروي ذلك عن عليٍّ وأبي هُريرةَ والنخعيِّ[٤] وأبي مجلَز. وبه قال سفيان الثوريُّ وإسحاق[٥].

الخامسة: وأمَّا رفعُ اليدين في التكبير عند الافتتاحِ والركوعِ والرفعِ من الركوع والسجودِ، فاختُلف في ذلك؛ فروى الدَّارقطنيُّ من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفعُ يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسَه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلَّا عبدُ الوهاب الثقفيُّ. والصَّوابُ: مِن فِعْلِ أنس[٦].

وفي الصَّحيحين من حديثِ ابنِ عمر، قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا قام إلى

(١) في (د) و(م): ابن المنذر، وهو تصحيف. وقول ابن المنذر الذي قاله في كتاب الإقناع ١/٩٣ هو ما ذكره أولاً من وضع اليمنى على اليسرى. أما ابن الزبير رضي الله عنهما فقد قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/٧٤: روي عن ابن الزبير أنه كان يرسل يديه إذا صلى، وقد روي عنه خلافه. اهـ. قلنا: أخرج أبو داود (٧٥٤) عن ابن الزبير قال: صفُّ القدمين ووضع اليد على اليد من السنة.

(٢) التمهيد ٢٠/٧٦: وفيه: روي عن الحسن وإبراهيم أنهما كانا يرسلان أيديهما في الصلاة. قال ابن عبد البر: وليس هذا بخلاف؛ لأن الخلاف كراهية ذلك، وقد يرسل العالِم يديه ليري الناس أن ليس ذلك بحتم واجب.

(٣) في الكافي ١/٢٠٦.

(٤) قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/٧٥ (والكلام منه): ولا يثبت ذلك عنهم. اهـ. وقد أخرجه عن علي وأبي هريرة أبو داود (٧٥٦) و(٧٥٧).

(٥) التمهيد ٢٠/٧٥.

(٦) سنن الدارقطني (١١١٩).

الصلاة رفع يديه حتى تكونا حَذْوَ مَنْكِبيه، ثم يكبِّر، وكان يفعلُ ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعلُ ذلك حين يرفعُ رأسَه من الركوع، ويقولُ: «سمِع الله لمن حَمِدَه» ولا يفعلُ ذلك حين يرفع رأسه من السجود[١].

قال ابن المنذر: وهذا قولُ الليثِ بنِ سعد، والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور. وحكى ابن وهب عن مالك هذا القولَ. وبه أقولُ؛ لأنَّه الثابتُ عن رسولِ الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفعُ المصلِّي يديه حين يفتتحُ الصلاةَ، ولا يرفعُ فيما سوى ذلك. هذا قولُ سفيان الثوريِّ وأصحابِ الرأي[٢].

قلت: وهو المشهورُ من مذهبِ مالكٍ؛ لحديثِ ابنِ مسعود؛ خرَّجه الدَّارقطنيُّ من حديث إسحاقَ بن أبي إسرائيل، قال: حدَّثنا محمد بن جابر، عن حماد، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ ومع أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، فلم يرفعوا أيديَهم إلَّا أوَّلاً عند التكبيرةِ الأولى في افتتاح الصلاة. قال إسحاقُ: به نأخذُ في الصلاة كلِّها. قال الدَّارقطنيُّ: تفرَّد به محمد بن جابر ـ وكان ضعيفاً ـ عن حماد، عن إبراهيم. وغيرُ حمادٍ يرويه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله مِن فِعْله، غيرَ مرفوعٍ إلى النبيِّ ﷺ؛ وهو الصَّواب[٣].

وقد روى يزيد بنُ أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البَرَاء: أنَّه رأى النبيَّ ﷺ حين افتتح الصلاةَ رَفَعَ يديه حتى يُحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يَعُدْ إلى شيءٍ من ذلك حتى فرغ من الصلاة[٤]. قال الدَّارقطنيُّ[٥]: [وإنَّما] لقِّن يزيد في آخر عمره: ثم لَم يَعُدْ بعدُ، فتَلقَّنه وكان قد اخْتَلَط.

وفي «مختصر ما ليس في المختصر» عن مالك: لا يرفع اليدين في شيءٍ من

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٦)، وصحيح مسلم (٣٩٠).

(٢) الأوسط لابن المنذر ٣/ ١٣٦ - ١٥١ .

(٣) سنن الدارقطني (١١٣٣).

(٤) سنن الدراقطني (١١٢٩).

(٥) إثر الحديث (١١٣١)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الصلاة[١]. قال ابن القاسم: ولم أرَ مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليَّ تَرْكُ رَفْعِ اليدين عند الإحرام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾

أي: مبغِضك، وهو العاص بنُ وائل[٢]. وكانت العربُ تسمِّي مَن كان له بنونَ وبناتٌ، ثم مات البنونَ وبقي البناتُ: أبتر. فيقال: إنَّ العاص وقف مع النبيِّ ﷺ يكلِّمه، فقال له جمعٌ من صناديد قريش: مع مَن كنتَ واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبدُ الله بنُ رسولِ الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٣]، أي: المقطوعُ ذِكْرُه من خير الدنيا والآخرة.

وذَكَر عكرمةُ عن ابن عباس قال: كان أهلُ الجاهليةِ إذا مات ابنُ الرجلِ قالوا: بُتِر فلان. فلمَّا مات إبراهيم ابنُ النبيِّ ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بُتِر محمد؛ فأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٤] يعني بذلك أبا جهل.

وقال شمر بن عطية: هو عقبةُ بنُ أبي مُعَيط[٥].

وقيل: إنَّ قريشاً كانوا يقولون لمَن مات ذكورُ ولدِه: قد بُتِر فلان. فلمَّا مات لرسول الله ﷺ ابنُه القاسمُ بمكة، وإبراهيمُ بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له مَن يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدِّيُّ وابن زيد[٦].

---

(١) وهذا أضعف الأقوال وأشَذُّها، كما ذكر أبو العباس في المفهم ٢/ ١٩ . وقال ابن المنذر في الأوسط ٣/ ١٣٧ : أجمع كل مَن نحفظ عنه من أهل العلم على أن النبي ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وأن من السنة أن يرفع المرء يديه إذا افتتح الصلاة. اهـ . وكتاب مختصر ما ليس في المختصر لأبي إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان، وكُتبُ ابن شعبان فيها غرائب من قول مالك، وأقوال شاذة عن قوم لم يشتهروا بصحبته، ليست مما رواه ثقات أصحابه، واستقر من مذهبه. الديباج المذهب ٢/ ١٠٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٧ - ٦٩٩ عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٥٠٣ .

(٤) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٠ عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦ .

وقيل: إنَّه جوابٌ لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لمَّا قدم مكة: نحن أصحابُ السقايةِ والسَّدانةِ والحِجابةِ واللِّواء، وأنت سيدُ أهلِ المدينة، فنحن خيرٌ أم هذا الصُّنَيْبير المنبتر(١) من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خيرٌ، فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٥١]. ونزلت في قريشٍ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ قاله ابنُ عباسٍ أيضاً وعكرمة(٢).

وقيل: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا أَوْحَى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انْبَتَر منَّا محمد، أي: خالَفَنا وانقطع عنَّا. فأخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أنَّهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمةُ وشَهْر بن حَوْشَب(٣).

قال أهلُ اللغةِ: الأبترُ من الرجال: الذي لا وَلَدَ له، ومن الدوابِّ: الذي لا ذَنَبَ له. وكلُّ أمرٍ انقطعَ من الخير أثرُه، فهو أبتر. والبَتْر: القَطْعُ. بَتَرْتُ الشيءَ بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيفُ القاطِع. والأَبْتَر: المقطوعُ الذَّنَب. تقول منه: بَتِر ـ بالكسر ـ يَبْتَرُ بَتَراً(٤). وفي الحديث «ما هذه البُتَيراء»(٥).

وخطب زياد خُطبتَه البتراء؛ لأنَّه لم يحمد الله فيها، ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ. ابن السكيت(٦): الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال: سمِّيا أبتريْنِ لقلَّةِ خيرِهما. وقد أبتره الله، أي: صيَّره أبترَ. ويقال: رجلٌ أُباتر ـ بضم الهمزة ـ: الذي يقطعُ رَحِمَه. قال الشاعر:

---

(١) في (م): الصنيبر الأبيتر.

(٢) أخرجه عن ابن عباس إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٣٥ ، والبزار (٢٢٩٣ ـ كشف)، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، والطبري ٧/ ١٤٢ و١٤٥ و٢٤/ ٧٠٠ ، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥). وأخرجه عن عكرمة سعيد بن منصور (٦٤٨ ـ تفسير)، والطبري ٧/ ١٤٣ و٢٤/ ٦٩٩ - ٧٠٠ . ووقع في بعض المصادر: الصنبور، بدل: الصنيبير، وهو تصغير الصنبور، وسيأتي شرحه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦ ، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٧٠٠ .

(٤) بابه: طَرِب. مختار الصحاح (بتر)، والكلام من الصحاح (بتر).

(٥) ذكره ابن الأثير في النهاية (بتر): أن سعداً ﷺ أوتر بركعة، فأنكر عليه ابن مسعود ﷺ وقال: ما هذه البتيراء.

(٦) في إصلاح المنطق ص ٤٤٠ ، والكلام من الصحاح (بتر).

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِهِ خُنْزُوانَةٌ على قَطْعِ ذي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ[(١)]

والبُتْرِيَّة: فِرقةٌ من الزيدية؛ نُسبوا إلى المغيرة بنِ سعد، ولقبُه الأبتر[(٢)].

وأمَّا الصُّنبورُ فلفظٌ مشترك. قيل: هو النخلةُ تبقى منفردةً، ويَدِقُّ أسفلُها ويتقشَّر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة. وقيل: هو الرجلُ الفَرْدُ الذي لا وَلَدَ له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَبُ[(٣)] الحوضِ خاصَّةً؛ حكاه أبو عبيد، وأنشد:

ما بين صُنْبورٍ إلى الإزاءِ[(٤)]

والصُّنبور: قَصَبةٌ تكون في الإداوة من حديدٍ أو رصاصٍ يُشرب منها. حكى جميعَه الجوهريُّ[(٥)] رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (بتر)، وأساس البلاغة (خنز). الخنزوانة: الكبر، يقال: فيه خنزوانة، وفي أنفه خنزوانة. والأحَذُّ: السريع القطع. جمهرة الأمثال ٢/ ٩٩ ، وأساس البلاغة (حذذ) و(خنز) .

(٢) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بتر)، والصواب أن الأبتر هو لقب كثير النواء، وإليه ينسب البترية، وهي طائفة تزعم أن عليًا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالبيعة، وأن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأن عليًا ترك ذلك لهما، ويقفون في عثمان ﷺ وأمره وحاله، ويسمُّون أيضاً الصالحية لأنهم ينسبون إلى الحسن بن صالح بن حيٍّ الفقيه.

أما المغيرة بن سعد ـ ويقال: ابن سعيد ـ فأتباعه يسمُّون المُغيرية، وذكر ابن الأثير في الكامل ٥/ ٢٠٧ في حوادث سنة ١١٩ أن المغيرة هذا كان ساحراً، وكان يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك لفعلت، ولما بلغ خبره خالد بن عبد الله القسري أحرقه. ينظر مقالات الإسلاميين ١/ ٦٩ و١٤٤ ، والفرق بين الفرق ص٢٤ ، والملل والنحل ص١٦١ و١٧٦ والأنساب ٢/ ٧٤ ، ومنهاج السنة النبوية ٢/ ٥٠٣ و٣/ ١١ .

(٣) في النسخ الخطية: مبعث، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الصحاح (صبر) والكلام منه، والمثعب: مجرى الماء من الحوض وغيره. المعجم الوسيط (ثعب).

(٤) تهذيب اللغة ١٣/ ٢٨٣ ، والصحاح (صبر)، والكلام منه. ونقل الأزهري عن الأصمعي قال: الإزاء مصب الماء في الحوض.

(٥) في الصحاح (صبر). والإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء. اللسان (أدا).

تفسير سورة الكوثر

وهى مدنية ، وقيل : مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فُلْفُل ، عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت عليَّ آنفا سورة » . فقرأ : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾، حتى ختمها ،قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : « هو نهر أعطانيه ربى ، عز وجل ، فى الجنة ، عليه خير كثير ، تردُ عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب، يُخْتَلَج العبد منهم فأقول : يا رب ، إنه من أمتى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » (١) .

هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثى ، وهذا السياق .

وقد ورد فى صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَب فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر ، وأن عليه آنية عددَ نجوم السماء . وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائى ، من طريق محمد بن فضيل ، وعلى بن مُسْهِر ، كلاهما عن المختار بن فُلْفُل ، عن أنس . ولفظ مسلم قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « أنزلت على آنفا سورة » ، فقرأ : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ . ثم قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال: « فإنه نهر وَعَدَنيه ربى ، عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض تَرِدُ عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم (٢) ، فَيختلجُ العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتى . فيقول : إنك لا تدرى ما أحدث بعدك » (٣) .

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها .

فأما قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ ، فقد تقدم فى هذا الحديث أنه نهر فى الجنة . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى ، عن أنس فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا ثابت ،

---

(١) المسند (٣/١٠٢) .

(٢) فى م ، أ : « عدد نجوم السماء » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٧٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٢) .

عن أنس أنه قرأ هذه الآية (١) : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيتُ الكوثر ، فإذا هو نهر يجرى ، ولم يُشقْ شقاً ،وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى تربته ، فإذا مسْكه ذَفَرة ، وإذا حصاه اللؤلؤ » (٢).

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن حميد ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء ، فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله ، عز وجل »(٣).

ورواه البخارى فى صحيحه ،ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال :لما عُرِجَ بالنبى ﷺ إلى السماء قال :« أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف (٤) ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » . وهذا لفظ البخارى (٥)، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع ، أخبرنا ابن وهب ، عن سليمان بن هلال ، عن شريك بن أبى نمر ، قال : سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل فى(٦) السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يَشمّ تُرَابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خَبَأ لك ربك » (٧).

وقد تقدم [فى] (٨) حديث الإسراء فى سورة « سبحان » ، من طريق شريك عن أنس [عن النبى ﷺ] (٩) . وهو مخرج فى الصحيحين (١٠).

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا أسير فى الجنة إذ عَرَض لى نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ مُجَوف ، فقال الملك الذى معه : أتدرى ما هذا ؟ هذا الكوثر الذى أعطاك الله . وضرب بيده إلى أرضه ، فأخرج من طينه المسك »(١١) . وكذا رواه سليمان بن طِرْخان، ومعمر وهَمَام وغيرهم ، عن قتادة ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج (١٢) ، حدثنا أبو أيوب العباسى ، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنى محمد بن عبد الله ، ابن أخى ابن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس قال : سُئل رسول

(١) فى م : « هذه السورة » .
(٢) المسند (٢/٢٤٧) .
(٣) المسند (٣/١٠٣) .
(٤) فى م ، أ : « المجوفة » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٦) .
(٦) فى م : « إلى » .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٧) .
(٨ ، ٩) زيادة من م .
(١٠) انظر : تفسير أول سورة الإسراء .
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/٢٠٨) عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، به .
(١٢) فى أ : « شريح » .

الله ﷺ عن الكوثر ، فقال : « هو نهر أعطانيه الله فى الجنة ، ترابه مسك، [ماؤه] (١) أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنها لناعمة؟ قال : « أكلها أنعم منها » (٢) .

وقال أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عبد الوهاب ، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب ،عن أنس ،أن رجلاً قال : يا رسول الله ،ما الكوثر ؟ قال : « نهر فى الجنة أعطانيه ربى ، لهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة ؟ قال : « أكلها أنعم منها يا عمر »(٣) .

رواه (٤) ابن جرير ، من حديث الزهرى ، عن أخيه عبد الله ، عن أنس : أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكوثر ، فذكر مثله سواء (٥) .

وقال البخارى : حدثنا خالد بن يزيد الكاهلى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قالت : نهر [عظيم] (٦) أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئاه عليه دُرّ مجوف ،آنيته كعدد النجوم (٧) .

ثم قال البخارى : رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف ، عن أبى إسحاق .

ورواه أحمد والنسائى ، من طريق مُطرّف ، به (٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قالت : الكوثر نهر فى الجنة ، شاطئاه در مُجَوف . وقال إسرائيل : نهر فى الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء .

وحدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا يعقوب القُمى (٩) ، عن حفص بن حميد، عن شَمِر بن عطية ، عن شقيق (١٠) أو مسروق قال : قلت لعائشة : يا أم المؤمنين ، حدثينى عن الكوثر . قالت: نهر فى بطنان الجنة . قلت : وما بطنان الجنة ؟ قالت : وسطها ،حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت ،ترابه المسك،وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن أبى جعفر الرازى ، عن ابن أبى نجيح ، عن عائشة

---

(١) زيادة من أ .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٩) .

(٣) المسند (٣/ ٢٢٠) .

(٤) فى م : « ورواه » .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٩) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٥) .

(٨) المسند (٦/ ٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٥) .

(٩) فى أ : « العمى » .

(١٠) فى أ : « سفيان » .

قالت: من أحب أن يسمع خرير الكوثر ، فَلْيَجعل أصبعيه فى أذنيه [(١)] .

وهذا منقطع بين ابن أبى نجيح وعائشة ، وفى بعض الروايات : « عن رجل ، عنها » . ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك ، لا أنه يسمعه نفسه ، والله أعلم .

قال السهيلى : ورواه الدارقطنى مرفوعاً ، من طريق مالك بن مِغْوَل [(٢)] ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ [(٣)].

ثم قال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يَزْعُمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه [(٤)] .

ورواه أيضا من حديث هُشَيم ، عن أبى بشر وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير [(٥)].

[وقال الثورى ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير] [(٦)] .

وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحارب بن دِثَار ، والحسن بن أبى الحسن البصرى . حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة .

وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا ، فقال ابن جرير :

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عمر بن عبيد ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر أنه قال : الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الدر

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) ، ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٦٧) من طريق محمد بن ربيعة ، عن أبى جعفر الرازى ، عن مجاهد ، عن عائشة مرفوعاً .

(٢) فى م : « يزيد بن مغول » .

(٣) الروض الأنف للسهيلى (١/ ٢٤١) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٦) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٧٨) .

(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) .

والياقوت، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

وكذا رواه الترمذى عن ابن حميد ، عن جرير ، عن عطاء بن السائب ، به مثله [١] ،موقوفا . وقد روى مرفوعا فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن حفص ،حدثنا ورقاء قال . . . وقال عطاء [ابن السائب] [٢] عن محارب بن دِثار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ،والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ».

وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجة ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب ، به مرفوعا [٣] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَّية ، أخبرنا عطاء بن السائب قال : قال لى محارب بن دثار : ما قال سعيد بن جبير فى الكوثر ؟ قلت : حَدَّثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير . فقال : صدق ،والله إنه للخير الكثير .ولكن حدثنا ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت » [٤].

وقال ابن جرير : حدثنى ابن البرقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير، أخبرنى حَرَام بن عثمان ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أسامة بن زيد : أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوما فلم يجده ، فسأل امرأته عنه ــ وكانت من بنى النجار ــ فقالت : خرج يا نبى الله آنفا عامداً نحوك ، فأظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار ، أو لا تدخلُ يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حَيْساً ، فأكل منه ، فقالت : يا رسول الله ، هنيئا لك ومريئا ،لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهْنيك وأمْريك ؛ أخبرنى أبو عمارة أنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر . فقال : « أجل ، وعرضه ــ يعنى أرضه ــ ياقوت ومرجان ، وزبرجد ولؤلؤ » [٥].

حَرَام بن عثمان ضعيف . ولكن هذا سياق حسن ، وقد صح أصل هذا ، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث ،وكذلك أحاديث الحوض [ولنذكرها هاهنا] [٦].

وهكذا رُوى عن أنس ، وأبى العالية ، ومجاهد ، وغير واحدٍ من السلف : أن الكوثر : نهر فى الجنة . وقال عطاء : هو حوض فى الجنة .

وقوله : ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢٠٧) ولم يقع لى فى سنن الترمذى من هذا الطريق ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف.

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (٢/ ١٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٤) وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٠) .

(٤ ، ٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٠) .

(٦) زيادة من أ، وكذا قال الحافظ ، ولم يقع فى النسخ ذكر أحاديث الحوض ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير فى كتابه (النهاية فى الفتن والملاحم ١/ ٣٧٤ ــ ٤١٢) ولولا خشية الإطالة لذكرناها هاهنا فلتراجع هناك .

النهرُ الذى تقدم صفته ــ فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، قال ابن عباس، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البُدْن ونحوها . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، والربيع ،وعطاء الخراسانى ، والحكم ، وإسماعيل (١) بن أبى خالد ، وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **وَانْحَرْ** ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يُروَى هذا عن على ، ولا يصح. وعن الشعبى مثله .

وعن أبى جعفر الباقر : ﴿ **وَانْحَرْ** ﴾ يعنى : ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة .

وقيل : ﴿ **وَانْحَرْ** ﴾ أى : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا منكرا جدا فقال : حدثنا وهب بن إبراهيم الفامى (٢) ــ سنة خمس وخمسين ومائتين ــ حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزى ،حدثنا مقاتل بن حيان ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبى ﷺ : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ ، قال رسول الله : « يا جبريل ، ما هذه النَّحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ » فقال: ليست بنحيرة ، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت ،وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

وهكذا (٣)رواه الحاكم فى المستدرك ، من حديث إسرائيل بن حاتم ، به (٤) .

وعن عطاء الخراسانى : ﴿ **وَانْحَرْ** ﴾ أى : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل ،وأبرز نحرك ، يعنى به الاعتدال . رواه ابن أبى حاتم .

[كل هذه الأقوال غريبة جدا] (٥) . والصحيح القول الأول ، أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد (٦) ، ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ،ونسك نسكنا،فقد أصاب النسك.ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له ».فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول

(١) فى م : « وسعيد » . (٢) فى أ : « العامى » . (٣) فى م : « وقد » .

(٤) المستدرك (٢/ ٥٣٧) ، ورواه من طريق البيهقى فى السنن (٢/ ٧٥) ، ورواه ابن حبان فى المجروحين (١/ ١٧٧) من طريق إسرائيل بن حاتم ، به . وقال ابن حبان : « هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه ، وهذا خبر رواه عمر بن صبح ، عن مقاتل بن حيان ، وعمر بن صبح يضع الحديث فظفر عليه إسرائيل بن حاتم فحدث به عن مقاتل » .

(٥) زيادة من م ، أ . (٦) فى م : « يصلى يوم العيد » .

الله ، إنى نَسكتُ شاتى قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم . قال : « شاتك شاة لحم». قال : فإن عندى عناقا هى أحب إلىّ من شاتين ، أفتجزئ عنى ؟ قال : « تجزئك ، ولا تجزئ أحداً بعدك » (١).

قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة (٢) ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذى لا كِفَاء له ، وخصك به (٣).

وهذا الذى قاله فى غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظى ،وعطاء .

وقوله : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر** ﴾ أى : إن مبغضك ــ يا محمد ــ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت فى العاص بن وائل .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة .

وقال شَمِر بن عطية : نزلت فى عقبة بن أبى مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضا ، وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

وقال البزار : حدثنا زياد بن يحيى الحَسَّانى ، حدثنا بن أبى عدى ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصنْبر (٤) المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ،ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر** ﴾ .

هكذا رواه البزار (٥)،وهو إسناد صحيح .

وعن (٦) عطاء : نزلت فى أبى لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ .

وعن ابن عباس : نزلت فى أبى جهل . وعنه : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ** ﴾ يعنى : عدوك . وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر ، وغيرهم .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث البراء ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « والأولاد » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٢١٢) .

(٤) فى م : « هذا الضبر » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٩٣) « كشف الأستار » ووقع فيه : « حدثنا الحسن بن على الواسطى ، حدثنا يحيى بن راشد ، عن داود فذكر مثله ، ورواه أيضاً النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧٠٧) .

(٦) فى م : « وقال » .

وقال عكرمة : الأبتر : الفرد . وقال السُّدِّى : كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا : بُتر . فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد [١] ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

آخر تفسير سورة « الكوثر » ، ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « والتناد » .

١٠٨ — سورة الكوثر

(مكية وهى ثلاث آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ١٠٨ الكوثر

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ١٠٨ الكوثر

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ١٠٨ الكوثر

﴿ سورة الكوثر مكية وآيها ثلاث ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (إنا أعطيناك) وقرىء انطيناك (الكوثر) أى الخير المفرط الكثير ١
من شرف النبوة الجامعة لخيرى الدارين والرياسة العامة المستتبعة لسعادة الدنيا والدين فوعل من
الكثرة وقيل هو نهر فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال أتدرون ما الكوثر إنه نهر
فى الجنة وعدنيه ربى فيه خير كثير وروى فى صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وأبرد من
الثلج وألين من الزبد حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروى لا يظمأ من شرب منه
أبداً أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح
لهم أبواب السدد يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره لو أقسم على الله لأبره وعن ابن عباس رضى
الله عنهما أنه فسر الكوثر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير فإن ناساً يقولون هو نهر فى الجنة
فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل هو وأولاده وأتباعه أو علماء أمته أو القرآن
الحاوى لخير الدنيا والدين والفاء فى قوله تعالى (فصل لربك) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إعطاءه ٢
تعالى إياه عليه السلام ما ذكر من العطية التى لم يعطها ولن يعطيها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور
به أى استيجاب أى فدم على الصلاة لربك الذى أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التى لا يضاهيها نعمة
خالصاً لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحقوق شكرها فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام
الشكر (وانحر) البدن التى هى خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم *
ويمنع عنهم الماعون وعن عطية هى صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد والتضحية وقيل
هى جنس الصلاة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو أن يرفع يديه فى التكبير إلى نحره هو المروى
عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفراء
والكلبى وأبى الأحوص (إن شانئك) أى مبغضك كائناً من كان (هو الأبتر) الذى لا عقب له ٣



وتسمى كما قال البقاعي سورة النحر. وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، ونسب في البحر إلى الجمهور، مدنية في قول الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد، وفي الاتقان أنه الصواب ورجحه النووي عليه الرحمة في شرح صحيح مسلم لما أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في سننه وغيرهم عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقال: «إنه أنزل عليّ آنفاً سورة» فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنّا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها الحديث. وفي أخبار سبب النزول ما يقتضي كلاً من القولين وستسمع بعضاً منها إن شاء الله تعالى. ومن هنا استشكل أمرها وذكر الخفاجي أن لبعضهم تأليفاً صحح فيه أنها نزلت مرتين وحينئذ فلا إشكال. وآيها ثلاث بلا خلاف وليس في القرآن كما أخرج البيهقي عن ابن شبرمة سورة آيها أقل من ذلك بل قد صرحوا بأنها أقصر سورة في القرآن. وقال الإمام: هي كالمقابلة للتي قبلها لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة فذكر عز وجل في هذه السورة في مقابلة البخل ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿فصل﴾ [الكوثر: ٢] أي دم على الصلاة، وفي مقابلة الرياء ﴿لربك﴾ [الكوثر: ٣] أي لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون ﴿وانحر﴾ [الكوثر: ٣] وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي. ثم قال: فاعتبر هذه المناسبة العجيبة انتهى فلا تغفل.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني «أنطيناك» بالنون وهي على ما قال التبريزي لغة العرب العرباء من أولى قريش، وذكر غيره أنها لغة بني تميم وأهل اليمن وليست من الإبدال الصناعي في شيء. ومن كلامه ﷺ: «اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة» وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل: «أنطوا الثبجة ـ أي الوسط ـ في الصدقة». ﴿الْكَوْثَرَ﴾ فيه أقوال كثيرة. فذهب أكثر المفسرين إلى أنه نهر في الجنة لقوله ﷺ في آخر الحديث المتقدم آنفاً المروي عن الإمام أحمد ومسلم ومن معهما: «هل تدرون ما الكوثر؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»

وقوله عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجة وآخرون عن أنس عنه ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله تعالى». وجاء في حديث عن أنس أيضاً قال: دخلت على رسول الله فقال: «قد أعطيت الكوثر» قلت: «يا رسول الله وما الكوثر؟ قال: «نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب لا يشرب منه أحد فيظمأ ولا يتوضأ منه أحد فيشعث أبداً، لا يشرب منه من أخفر ذمتي ولا من قتل أهل بيتي». وروي عن عائشة أنها قالت: هو نهر في الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، شاطئاه الدر والياقوت والزبرجد، خص الله تعالى به نبيه محمد ﷺ من بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقالت: ليس أحد يدخل أصبعيه في أذنيه إلاّ سمع خرير ذلك النهر. وهو على التشبيه البليغ. وقيل: هو حوض له عليه الصلاة والسلام في المحشر. وقول بعضهم الاختلاف في الروايات سببه ملاحظة اختلاف سرعة السير وعدمها وهو قبل الميزان والصراط عند بعض وبعدهما قريباً من باب الجنة حيث يحبس أهلها من أمته ﷺ ليتحالوا من المظالم التي بينهم عند آخرين، ويكون على هذا في الأرض المبدلة. وقيل له ﷺ حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعده ويسمى كل منهما على ما حكاه القاضي زكريا كوثراً وصحح رحمه الله تعالى أنه بعد الصراط، وأن الكوثر في الجنة وأن ماءه ينصب فيه ولذا يسمى كوثراً وليس هو من خواصه عليه الصلاة والسلام كالنهر السابق بل يكون لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرده مؤمنو أممهم. ففي حديث الترمذي: «إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة». وهو كما قال حديث حسن غريب. وهذه الحياض لا يجب الإيمان بها كما يجب الإيمان بحوضه عليه الصلاة والسلام عندنا خلافاً للمعتزلة النافين له لكون أحاديثه بلغت مبلغ التواتر بخلاف أحاديثها فإنها آحاد بل قيل: لا تكاد تبلغ الصحة. ورأيت في بعض الكتب أن الكوثر هو النهر الذي ذكره أولاً وهو الحوض وهو على ظهر ملك عظيم يكون مع النبيّ ﷺ حيث يكون فيكون في المحشر إذ يكون عليه الصلاة والسلام فيه، وفي الجنة إذ يكون عليه الصلاة والسلام فيها، ولا يعجز الله تعالى شيء. وقيل: هو أولاده عليه الصلاة والسلام لأن السورة نزلت رداً على من عابه ﷺ وهم والحمد لله تعالى كثيرون قد ملؤوا البسيطة. وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب: أصحابه وأشياعه ﷺ إلى يوم القيامة، وقيل: علماء أمته ﷺ وهم أيضاً كثيرون في كل قطر وإن كانوا اليوم في بعض الأقطار والأمر لله تعالى أقل قليل. وعن الحسن أنه القرآن وفضائله لا تحصى. وقال الحسين بن الفضل: هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع. وقيل: هو الإسلام. وقال هلال: هو التوحيد. وقال عكرمة:هو النبوة. وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: هو نور قلبه ﷺ. وقيل هو العلم والحكمة. وقال ابن كيسان: هو الإيثار. وقيل هوالفضائل الكثيرة المتصف بها عليه الصلاة والسلام. وقيل المقام المحمود وقيل غير ذلك. وقد ذكر في التحرير ستة وعشرين قولاً فيه وصحح في البحر قول النهر وجماعة أنه الخير الكثير والنعم الدنيوية والأخروية من الفضائل والفواضل، ورواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد وهو المشهور عن الحبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وقد أخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام. قال أبو بشر: قلت لسعيد فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة. قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله عز وجل إياه ﷺ. وحُكي هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً وفيه إشارة إلى أن ما صح في الأحاديث من تفسيره ﷺ إياه بالنهر من باب التمثيل والتخصيص لنكتة وإلا فبعد أن صح

الحديث في ذلك بل كاد يكون متواتراً كيف يعدل عنه إلى تفسير آخر؟ وكذا يقال في سائر ما في الأقوال السابقة وغيرها. وهو فوعل من الكثرة صيغة مبالغة الشيء الكثير كثرة مفرطة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر. وقال الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وفي حذف موصوفه ما لا يخفى من المبالغة على ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي إسناد الإعطاء إليه دون الإيتاء إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التمليك فإن الإعطاء دونه كثيراً ما يستعمل في ذلك ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو امسك ﴾ [ص: ٣٩] بعد قوله ﴿هب لي ملكاً﴾ [ص: ٣٥]. وقيل فيه إشارة إلى أن المعطى وإن كان كثيراً في نفسه قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام بناءً على أن الإيتاء لا يستعمل إلاّ في الشيء العظيم كقوله تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا﴾ [سبأ: ١٠] و ﴿آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧] والإعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال تعالى ﴿أعطى قليلاً وأكدى﴾ [النجم: ٣٤] ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما فيه، وقيل التعبير بذلك لأنه بالتفضل أشبه بخلاف الإيتاء فإنه قد يكون واجباً ففيه إشارة إلى الدوام والتزايد أبداً لأن التفضل نتيجة كرم الله تعالى الغير المتناهي. وفي جعل المفعول الأول ضمير المخاطب دون الرسول أو نحوه إشعار بأن الإعطاء غير معلل بل هو من محض الاختيار والمشيئة. وفيه أيضاً من تعظيمه عليه الصلاة والسلام بالخطاب ما لا يخفى. وجوز أن يكون في إسناد الإعطاء إلى «نا» إشارة إلى أنه مما سعى فيه الملائكة والأنبياء المتقدمون عليهم السلام، وفي التعبير بالماضي قيل إشارة إلى تحقق الوقوع، وقيل إلى إشارة تعظيم الإعطاء وأنه أمر مرعي لم يترك إلى أن يفعل بعد. وقيل: إشارة إلى بشارة أخرى كأن قيل: إنا هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية؟ وقيل: إشارة إلى أن حكم الله تعالى بالإغناء والإفقار والإسعاد والإشقاء ليس أمراً محدثاً بل هو حاصل في الأزل. وبُني الفعل على المبتدأ للتأكيد والتقوي، وجوز أن يكون للتخصيص على بعض الأقوال السابقة في الكوثر وفي تأكيد الجملة بأن ما لا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر وقيل لرد استبعاد السامع الإعطاء لما أنه لم يعلل والمعطى في غاية الكثرة وجوز أن يكون لرد الإنكار على بعض الأقوال في الكوثر أيضاً.

والفاء في قوله تعالى ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إعطاءه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام ما ذكر من العطية التي لم يعطها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور به أي استجاب أي فدم على الصلاة لربك الذي أفاض عليك ما أفاض من الخير خالصاً لوجهه عز وجل خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحق شكره تعالى على ذلك فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر، ولذا قيل ﴿**فصل**﴾ دون «فاشكر» ﴿**وانحر**﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع منهم الماعون كذا قيل. وجعل السورة عليه كالمقابلة لما قبلها كما فعل الإمام، ولم يذكروا مقابل التكذيب بالدين. وقال الشهاب الخفاجي: إن الكوثر بمعنى الخير الكثير الشامل للأخروي يقابل ذلك لما فيه من إثباته ضمناً وكذا إذا كان بمعنى النهر والحوض والأمر على تفسيره بالإسلام وتفسير الدين به أيضاً في غاية الظهور، والمراد بالصلاة عند أبي مسلم الصلاة المفروضة. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك وأخرجه الأول وابن المنذر عن ابن عباس، وذهب جمع إلى أنها جنس الصلاة. وقيل: المراد بها صلاة العيد

وبالنحر التضحية. أخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: كانت هذه الآية يوم الحديبية أتاه جبريل عليهما الصلاة والسلام فقال انحر وارجع، فقام رسول الله ﷺ فخطب خطبة الأضحى ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها فذلك قوله تعالى ﴿فصل لربك وانحر﴾ واستدل به على وجوب تقديم الصلاة على التضحية وليس بشيء وأخرج عبد الرزاق وغيره عن مجاهد وعطاء وعكرمة أنهم قالوا: المراد صلاة الصبح بمزدلفة والنحر بمنى والأكثرون على أن المراد بالنحر نحر الأضاحي واستدل به بعضهم على وجوب الأضحية لمكان الأمر مع قوله تعالى ﴿فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥٣، ١٥٥] وأجيب بالتخصص بقوله ﷺ: «ثلاث كتبت عليّ ولم تكتب عليكم: الضحى والأضحية والوتر» وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص أنه قال ﴿وانحر﴾ أي استقبل القبلة بنحرك وإليه ذهب الفرّاء وقال: يقال منازلهم تتناحر أي تتقابل، وأنشد قوله:

أبا حكم هل أنت عم مجالد ... وسيد أهل الأبطح المتناحر

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿إنا أعطيناك﴾ الخ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام: «ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي»؟ فقال: إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، وإن لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. وأخرج ابن جرير عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أنه قال في ذلك: ترفع يديك أول ما تكبر في الافتتاح. وأخرج البخاري في تاريخه والدارقطني في الافراد وآخرون عن الأمير كرم الله تعالى وجهه أنه قال: ضع يدك اليمنى على ساعد اليسرى ثم ضعهما على صدرك في الصلاة. وأخرج نحوه أبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أنس مرفوعاً ورواه جماعة عن ابن عباس ـ وروي عن عطاء أن معناه: اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك. وعن الضحاك وسليمان التيمي أنهما قالا: معناه ارفع يديك عقيب الصلاة عند الدعاء إلى نحرك ولعل في صحة الأحاديث عند الأكثرين مقالاً وإلاّ فما قالوا الذي قالوا وقد قال الجلال السيوطي في حديث عليّ كرم الله تعالى وجهه الأول أنه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك بسند ضعيف وقال فيه ابن كثير إنه حديث منكر جداً بل أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات. وقال الجلال في الحديث الآخر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه: أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم بسند لا بأس به، ويرجع قول الأكثرين إن لم يصح عن النبيّ ﷺ ما يخالفه أن الأشهر استعمال النحر في نحر الإبل دون تلك المعاني وأن سنة القرآن ذكر الزكاة بعد الصلاة وما ذكر بذلك المعنى قريب منها بخلافه على تلك المعاني، وأن ما ذكروه من المعاني يرجع إلى آداب الصلاة أو أبعاضها فيدخل تحت ﴿فصل لربك﴾ ويبعد عطفه عليه دون ما عليه الأكثر مع أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فالأنسب أن يؤمر ﷺ في مقابلتهم بالصلاة والنحر له عز وجل، هذا واعتبار الخلوص في فصل الخ كما أشرنا إليه لدلالة السياق عليه، وقيل لدلالة لام الاختصاص. وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيد لترغيبه ﷺ في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك كائناً من كان ﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان. وأصل البتر القطع وشاع في قطع الذنب وقيل لمن لا عقب له أبتر على الاستعارة شبه الولد

والأثر الباقي بالذنب لكونه خلفه فكأنه بعده وعدمه بعدمه وفسره قتادة بالحقير الذليل وليس بذاك كما يفصح عنه سبب النزول وفيها عليه دلالة على أن أولاد البنات من الذرية كما قال غير واحد، واسم الفاعل أعني شانيء ها هنا قيل بمعنى الماضي ليكون معرفة بالإضافة فيكون الأبتر خبره ولا يشكل بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الإيمان من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للإيمان وذاق حلاوته فكان ﷺ أحب إليه من نفسه وأعز عليه من روحه ولم يكن أبتر لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه فيفيد الكلام أن الأبترية معللة بالبغض فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر رضي الله تعالى عنهم. واختار بعضهم في دفع ذلك حمل اسم الفاعل على الاستمرار فهم لم يستمروا على البغض والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقة وقيل انقطع حقيقة أو حكماً لأن من أسلم من نسل المبغضين انقطع انتفاع أبيه منه بالدعاء ونحوه لأنه لا عصمة بين مسلم وكافر. وما أشرنا إليه من أن هو ضمير فصل هو الأظهر وجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿**الأبتر**﴾ والجملة خبر ﴿**شانئك**﴾ وحينئذ يجوز صناعة أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال وحمل ﴿**شانئك**﴾ على الجنس هو الظاهر وخصه بعضهم بمن جاء في سبب النزول واحداً أو متعدداً وفيه روايات أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية، فمات القاسم عليه السلام وهو أول ميت من ولده عليه الصلاة والسلام بمكة، ثم مات عبد الله عليه السلام فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو ابتر فأنزل الله تعالى ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شمر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول إنه لا يبقى للنبي ﷺ عقب وهو أبتر، فأنزل الله تعالى فيه ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابىء قد بتر الليلة، فأنزل الله تعالى ﴿**إنا أعطيناك**﴾ السورة. وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أنه قال في الآية هو أبو جهل أي لأنها نزلت فيه وهذا المقدار في الرواية عن ابن عباس لا بأس به، وحكاية عنه أنه لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ لا تكاد تصح لأن هلاك اللعين أبي جهل على التحقيق قبل وفاة إبراهيم عليه السلام. وعن عطاء أنها نزلت في أبي لهب والجمهور على نزولها في العاصي بن وائل وأيًّا ما كان فلا ريب في ظهور عموم الحكم والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم فصل وانحر خالصاً لوجه ربك ولا تكترث بقول الشانيء الكريه فإنه هو الأبتر لا أنت. وتأكيدها قيل للاعتناء بشأن مضمونها وقيل هو مثله في نحو قوله تعالى ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [المؤمنون: ٢٧] وذلك لمكان فلا تكترث الخ المفهوم من السياق. وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة وعمم هذا الشيخ عليه الرحمة كلاً من جزأي الجملة، فقال: إنه سبحانه يبتر شانىء رسول الله ﷺ من كل خير فيبتر أهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير ولا يؤهله لمعرفته تعالى ومحبته والإيمان برسله عليهم السلام، ويبتر أعماله فلا يستعمله سبحانه في طاعته، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً، ويبتره من جميع القرب فلا يذوق لها طعماً ولا يجد لها حلاوة وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها وهذا جزاء كل من شنأ ما جاء به الرسول ﷺ لأجل هواه كمن تأول آيات الصفات أو أحاديثها على غير مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه

الصلاة والسلام أو تمنى أن لا تكون نزلت أو قيلت. ومن أقوى العلامات على شنآنه نفرته عنها إذا سمعها حين يستدل بها السلفي على ما دلت عليه من الحق وأي شنآن للرسول عليه الصلاة والسلام أعظم من ذلك، وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والدفوف والشبابات فإذا سمعوا القرآن يتلى أو قرىء في مجلسهم استطالوه واستثقلوه، وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة إلى غير ذلك ولكل نصيب من الانتبار على قدر شنآنه انتهى وفي بعضه نظر لا يخفى. وقرأ ابن عباس «شنيك» بغير ألف فقيل مقصور من شاني كما قالوا برد في بارد وبر في بار، وجوز أن يكون بناء على فعل. هذا وأعلم أن هذه السورة الكريمة على قصرها وإيجازها قد اشتملت على ما ينادى على عظيم إعجازها، وقد أطال الإمام فيها الكلام وأتى بكثير مما يستحسنه ذوو الأفهام وذكر أن قوله تعالى ﴿**وانحر**﴾ متضمن الاخبار بالغيب وهو سعة ذات يده ﷺ وأمته وقيل مثله في ذلك ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾. وذكر أنه روي أن مسيلمة الكذاب عارضها بقوله إنا أعطيناك الزماجر فصل لربك وهاجر إن مبغضك رجل كافر. ثم بيّن الفرق من عدة أوجه وهو لعمري مثل الصبح ظاهر، ومن أراد الاطلاع على أزيد مما ذكر فليرجع إلى تفسير الإمام والله تعالى ولي التوفيق والإنعام.